الفصل السادس

عبء البطل الأمريكي

في مواجهة الخوف والخطر، رصت أمريكا الصفوف، وادثرت برمزيتها الوطنية وأساطيرها المستدامة. لقد حطمت أحداث الحادي عشر من سبتمبر صورة أمريكا السعيدة، الآمنة، المطمئنة، ألغت الاستثناء الخاص الذي يعفي ويقي ترابها الوطني من بلوى الإرهاب الذي ينكب البلاد الأخرى. الواقع الراهن - والتهديد المستقبلي - دفع أمريكا للبحث عن أبطال. وفي إطار تقاليد الرواية الأسطورية الأمريكية، يعيد هذا البحث إلى الأذهان تلك اللحظة التي يقوم فيها بطل فيلم رعاة البقر الكلاسيكي "شين" (Shane) (1953)، الذي سينشر العدالة، بركوب حصانه ونزول الوادي الأخضر الرحيب المطوق بجلال "الجبال الأرجوانية المهيبة" - التعبير السينمائي عن الأغنية الوطنية "أمريكا الجميلة".

إذا أردنا اكتشاف السبب الذي يجعل العالم يظهر مثل هذه العداوة نحو أمريكا، خصوصا في أوروبا الغربية، يمكننا رؤية جزء من الجواب في قراءات المشاهدين الأوروبيين المختلفة لهذا الفيلم النموذجي الأصيل عن رعاة البقر. فما يعتبره

الأمريكان بمثابة رؤية رمزية لفضائل بسيطة وفر الحماية لها فارس تائه في البرية، يراه العالم مليئا بالغموض والالتباس في قلب أمريكا: يراه عنفا. الخطاب السياسي الأمريكي المنمق الطنان قد يدور بعجلاته حول الأفكار المبتذلة القديمة المتعلقة بهوية الذات الوطنية، مع اعتراف واضح وموقن بالحاجة إلى الحفاظ على الذات والأمن. لكن فيما وراء الدخان ولهب النار، خارج تلك الدائرة، يصبح المعنى واضحا وبسيطا: على الآخرين أن يموتوا. وحين يذهب شين على صهوة جواده إلى مساكن المستوطنين المذعورين المرتاعين، يحمل في ركابه أساليب وذهنية ومسلك العنف. في نهاية المطاف سوف ينطق بالاستجابة المناسبة للخطر، ويقود الدفاع ضد هجوم الشر الضاري، وبفوهة المسدس سيأتي بالأمن الذي يجعل الأرض آمنة مطمئنة ومهيأة لفضائل التقدم الاجتماعي وتحقيق المهمة الوطنية. لسوف يفعل ذلك بوحشية وقسوة لا تعرفان الرحمة، ليقتل دون هوادة أولئك الذين يعترضون المسار المستقبلي لأمريكا.

جرى الاستشهاد بالفيلم في أحيان كثيرة بوصفه أسطورة "بلغت سن الرشد". لكن ذلك أقل علاقة بالشخصية المحورية لجو الصغير، الصبي الذي كان أول من رأى شين يقترب من المستوطنة، ليصبح بسرعة تابعه المتحمس، مقارنة بفكرة

أمريكا ذاتها. يتناول الفيلم المرحلة الانتقالية من حقبة مربي الماشية، الذين حلوا محل صيادي الحيوانات والحطابين، ليخلوا السبيل بدورهم للفضائل المتحضرة للاستيطان والاستقرار. ولذلك، فإن "شين" أسطورة تدور حول حقوق الملكية، واحتكار المطالب العادلة بحق الاستخدام القويم للأرض. مواضيعه توجزها حجج مربي الماشية، ريكر: الدم هو الرابطة التي تشرعن الاستيلاء على الأرض. وهو يعني إراقة الدم من خلال العنف. وما رسخه "شين" في نهاية المطاف هو أن العنف عمل تحريري تخليصي، لتحقيق العدالة التي تضمن للحضارة أمنها وتقدمها. الفيلم عبارة عن قصيدة رومانسية تأملية مترعة بالحنين إلى الماضي وكيف تشكلت فيه الأمة، أمريكا.

تمثل أفلام رعاة البقر حيزا أسطوريا يتم فيه استكشاف تاريخ وفكرة ومواضيع أمريكا؛ ولذلك تصبح مكانا مناسبا لنا لتقصي وتفحص الفكرة الملتبسة للهوية الذاتية الأمريكية، وكيف أصاب تشكل هذه الهوية أوروبا بالذعر والرعب. المنظّر السينمائي الأمريكي ريتشارد سلوتكين، أستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة ويسليان، قام بتفحص الطريقة التي تم بها استغلال أدب رعاة البقر (الكاوبوي) في مراحل متلاحقة من التاريخ الأمريكي، كدلالة مجازية قوية على الاتصال السياسي

وسياسة الأمة. تطورت هذه الدلالة المجازية عبر ثلاث مراحل، يتفحصها سلوتكين بتفصيل مسهب، وانعكست كل منها بوضوح في عناوين كتبه: "الانبعاث من خلال العنف: أسطورة الحدود الأمريكية النائية 1600-1860"؛ "البيئة المهلكة: أسطورة الحدود النائية في عصر التصنيع 1800-1890"؛ "الأمة المقاتلة بالبندقية: أسطورة الحدود النائية في أمريكا القرن العشرين". يقدم سلوتكين الحجة على أن العنف كان في كل مرحلة عنصرا محوريا لتخصيص وشرعنة وتعريف هوية أمريكا.

القوة الانفعالية العاطفية للمواضيع الأسطورية في الفيلم هي التي تعلّم الفوارق المميزة بين صورة أمريكا الذاتية وتقاليد روايتها من ناحية ووجهة نظر العالم من ناحية أخرى. ففي تاريخ أمريكا، أوجد الدولة الأسطوري الخيالي، والواقعي الحقيقي، والعنف الفردي والجماعي. ونظرا لعدم قدرة الدولة على توفير العدالة والأمن، وتجسيد أداة فاعلة للقانون، فقد استمرت في شرعنة اللجوء إلى العنف الفردي والجماعي لكي يضمن السكان حفظ الذات؛ وبهذه الطريقة أمكنهم جعل الأمة/الدولة حقيقة واقعة. " الواجب/ الحق بالتوسع" لنشر رسالة أمريكا وأداء مهمتها طبق بالعنف. ولا يقتصر أدب رعاة البقر (روايات، أفلام سينمائية، مسلسلات تلفزيونية، برامج إذاعية)،

النوع التعبيري الأمريكي المحدد، على مجرد كونه أنشودة ابتهالية تترنم بالعنف. بل هو وجهة نظر تعتمد على الضرورة الجوهرية، والمحتومة، والمستمرة للعنف من أجل الحفاظ على الحضارة. روايات وأفلام ومسلسلات رعاة البقر تتبنى الأسطورة التي تقول إن الشر شموس عنيد ولا مفر من إزالته واستئصاله، وإن العدالة تعتمد في نهاية المطاف على الاستعداد/ والرغبة بسفك الدماء، وإن الحرية تكمن في الحق بالرد المسلح، وإن اللجوء إلى العنف أمر مشروع، والسبيل الوحيد المضمون لحل الصراع. لقد عرف العالم كله وخبر مذهب رعاة البقر وتعبيراته الأدبية والفنية، وكمنت في شهرته وشعبيته ردة فعل مختلفة: الخوف.

قد يكون من أصعب الأشياء على الأمريكيين تقدير وإدراك كيف تثير أساطيرهم الوطنية الثملة بالانتصارات مشاعر الشك والخوف لدى العالم، وكيف تؤجج حكاياتهم المميزة قلقه، وتوفر الأساس المنطقي لارتيابه بأمريكا. إنه الخوف من استمرار وجهة النظر السياسية الأمريكية في الانتشار/ والتشكل السهل السريع ضمن إطار أسطورة قوى العنف الإنقاذية والتجديدية والتحريرية، بدون إخضاعها للنقد العقلاني السليم. أما السؤال الذي يكمن في قلب هذه الرؤية الأسطورية

فهو: هل تتبنى أمريكا وتحترم وتبجل معيارا مزدوجا فيما يتعلق بالمنتصر والمهزوم، والقاتل والضحية؟ في عقيدة رعاة البقر، لا يستحضر التأملات ويثير المشاعر سوى البطل - ما يدافع عنه، ويبرره، ويحميه، وينقذه - في حين لا يندب أحد المهزومين والمغلوبين والضحايا؛ فهؤلاء لا يحتاجون للرثاء والأسف، وباعتبارهم عناصر للشر لا يرتفعون - بالتعريف - إلى مستوى قيمة البشر. ومع قيام الثقافة الشعبية الأمريكية على نحو متزايد باطراد بتطويق وإحاطة كل القصص، وكافة التواريخ، بإطار سلطتها المرجعية وسلطة مبتكريها، فإنها تعيد حفر وطبع أهواءها وانفعالاتها الأسطورية، ومبادئها الأخلاقية، على أفكار العالم التي غدت أكثر تعقيدا وتحديا. وبالنسبة للعالم الثالث، يبدو المعنى الضمني في الرواية الأمريكية جليا للعيان: أنتم هنود حمر، أجانب، تعصبون رؤوسكم وتركبون الجمال. لكن ما أخفق غالبا في التأثير في الوعي الأمريكي هو أن أوروبا - الغرب فيما وراء حدود أمريكا - تشعر أيضا بقلق عميق، وخوف شديد، والتباس محير، نتيجة الدلالات والمواضيع المتضمنة في الأسطورة الأمريكية.

غاص تاريخ أوروبا أيضا في مستنقع الدم (داخليا)، وتخضب تراثها الاستعماري بدماء الشعوب المستعمرة (خارجيا). لكن

التاريخ الأوروبي هو قصة شعوب وأمم لم تغادر قارتها وتبذل جهدها من أجل صياغة رسالة جديدة، وبيان بالأهداف والقيم، ومهمة واجبة تؤديها. فقد تشكل تاريخها من خلال الصراع الداخلي في سبيل حل واستيعاب ودمج قصة المغلوبين ضمن إطار الأمة ككل، وهذا الكل من نتاج نوع من التغيير يختلف عن ذلك الذي تمثله أساطير أمريكا. وبغض النظر عما إذا كانت القصة قصة الخاسرين في التاريخ الذين استهدف كفاحهم مزيدا من الحرية المدنية، ومشاركة أكثر عدالة ومساواة، أو كانت عبارة عن ميراث الحرب بوصفها تجربة جمعية للسكان برمتهم، هنا على ترابهم الوطني و"هناك" أيضا، فإن العنف، والعدالة، والمحافظة على الذات، والأمن، أوجدت جميعا مخزونا مختلفا من الاستجابات لدى الأوروبيين. وبغض النظر عما إذا كنا نناقش تقدم وانتشار العولمة أو بناء تحالف عالمي لـ"الحرب على الإرهاب"، فإن من الخطأ تجاهل ما يكمن تحت سطح التعاون الأوروبي مع القوة الأمريكية من اختلاف وتباين في المواقف، والأفكار، والمعاني. إن الخوف من العواقب العملية، إضافة إلى الاعتراضات على قواعد وموجبات ممارسة القوة الأمريكية، يوفر فهما نقديا منطقيا للأسباب التي تجعل الأوروبيين يكرهون أمريكا.

لكن رسم صورة دقيقة للمواقف الأوروبية والأمريكية تجاه العنف، تتطلب إلقاء نظرة أقرب على محورية أسطورة رعاة البقر في الوعي الأمريكي. أمريكا تبدأ فعلا من روايات رعاة البقر، من حكايا الحدود النائية الخرافية، حيث يمكن ترويض وتعمير البرية المقفرة عبر نقل أسباب الحضارة إليها. وتلك كانت حكايا خرافية ابتكرت عمدا وكتبت بغرض دعائي وأصبحت مادة الأسطورة وقوامها وجوهرها. كل الأخبار التي وصلت عن الأمريكيتين، بدءا من تقارير كولمبوس وأمريكو فيسبوتشي، إلى الكابتن جون سميث ومن بعده، اشتركت جميعا في هدف جعل العالم الجديد مكانا متاحا ومغريا للمستثمرين والمستوطنين الطامحين بالقدوم إلى أمريكا. إن فكرة أمريكا والمواضيع التي ستصبح مبتذلة في ثقافة "الكاوبوي"، جرى بيعها ونشرها عبر الأدب الشعبي لحث وتحفيز وضمان إنشاء مستعمرات المستوطنين. وكان أدب الرحلات، الذي ضم جهود ومساعي ما دعاهم بيرسي ادامز بـ"الرحالة الكذابين"، بمآثرهم الجسورة المألوفة، تراثا مزدهرا ألهم بدايات الاستيطان في أمريكا، ثم تطور ليخدم تكوين الأمة[1].

من اليسير تقدير مدى السرعة والسهولة اللتين تم بهما تكييف وتهيئة أسطورة الملك آرثر وفرسان الدائرة المستديرة في التراث الأوروبي لصنع التراث السردي في رواية أمريكا. كانت أساطير الملك آرثر وفرسان الدائرة المستديرة تمثل أشهر وأشمل تراث تقليدي في الأدب المحلي الشعبي، حيث يمكن العثور عليها في كل اللغات الأوروبية. وفي الحقيقة، وفرت المناخ الشعبي الملائم لتبرير الحملات الصليبية ضد "الكفار" المسلمين. لأن جوهر مواضيع الكفاح الجهادي والبحث عن الضالة المنشودة (الكأس المقدسة) في أساطير الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة هو الصراع بين الخير والشر، والمسعى وراء النقاء والطهر، والدفاع عن الحضارة بقوة السلاح، وأبلسة الأعداء. يقدم ريتشارد سلوتكين الحجة على وجود مصدر آخر لأصول ثقافة "رعاة البقر"، يتمثل في إعادة ترتيب تقاليد الأدب المتزمت التطهري (البيوريتاني) بأسلوب حاذق وماكر. فالمواضيع الرئيسة في هذا الأدب، الذي انشغل بالصراع داخل وعي المتطهرين (البيوريتان)، شملت الشعور بعدم الأمان، والضعف البشري، والإحساس بالعزلة، باعتبارها قوى دافعة تستحث على الاتكال على الرب، والبحث عن ضمانة إلهية لأفعال البشر، واليقين بأداء مهمة الله في إعمار الأرض وبناء الحياة المتحضرة للمجتمع. ويحاول سلوتكين إثبات أن روايات الغرب الأمريكي ورعاة

البقر عملت على تجسيد وتبرير هذه المواضيع ووجدت الحل لها في مشروع الاستيلاء على الأرض وترويض البرية. راعي البقر/البطل يجسد كل فضائل ويقينيات هذا المشروع، جنبا إلى جنب كافة حالات الغموض والإبهام والالتباس والتسامي عن الشعور بالذنب المتضمن فيها. كما يحل غموض والتباسات العنف، الذي يمثل جزءا جوهريا من الرد البطولي على تحدي البراري الموحشة.

لا توجد رواية عن الغرب الأمريكي الضاري بدون بطل، وهو على الدوام رجل يحمل مسدسا. في رواية جيمس فنيمور كوبر (1789-1851) "آخر الموهيكان" (1826)، التي اعتبرت أصل التقاليد الشعبية لأدب (وفن) رعاة البقر برمته، يتم استدعاء البطل هوكي، الرجل الذي يحمل مسدسا ضخما، من أجل استخدام معرفته بالأرض، ومهارات السكان المحليين التي تعلمها، وبراعته في استعمال المسدس، لتعبيد الطريق أمام (وضمان الحفاظ على) المجتمع الأبيض. كان بطل كوبر متخما بالغموض، مثلما كان رأيه هو حول تقدم حركة مستوطنات البيض. لكن جرى تبسيط هذه التعقيدات لتشكل المادة الخام لعدد لا يحصى من الروايات الرخيصة التي ظهرت في ستينيات القرن التاسع عشر وانشغلت بأسطرة التخوم النائية للغرب

الضاري، حتى وإن دارت أحداثها في حوض المسيسبي، ثم استعارتها السينما، والإذاعة، والتلفزيون وكررتها إلى ما لا نهاية اعتمادا على التقاليد التي أرساها كوبر، الأمر الذي جعل "رعاة البقر" الأسطورة الرامزة للهوية الذاتية الأمريكية.

حتى شين يدين بفضل عظيم إلى بطل كوبر. فحين يمتطي جواده وينزل إلى الوادي، كان يرتدي جلد الغزال ويتمنطق بمسدس (الرمزين الدالين على اغتصاب الأرض). وعلى شاكلة هوكي قبله، حاول التكيف مع الحياة المستقرة التي تخضع البرية بالعمل الشاق، إلى أن حانت لحظة الذروة عندما توجب عليه مرة أخرى ارتداء جلد الغزال وحمل المسدس ليجد حلا للصراع بين الحضارة وأعدائها من خلال إطلاق الرصاص على الأشرار. ومثل هوكي أيضا، رحل على جواده تاركا وراءه مجتمعا محليا امتلك الشرعية، والقدرة على التجدد، والحفاظ على الذات، والتمتع بالأمان من خلال العنف. إن مسعى المستوطنين للاستقرار يتطهر من خلال العنف الذي يمارسه البطل، كما يحل مشكلة شعورهم بعدم الأمان والضعف المتأصلة في صراعهم من أجل ترويض الأرض. أما القتلى فلا يمكن الحزن عليهم لأنهم جسدوا كل ما هو مناقض للخير، والنقاء، والطهر، الصفات التي قدر لها أن تنتصر بقيمتها

الجوهرية الأصلية. باختصار، لدينا هنا كل العناصر الجوهرية لواجب/ وحق أمريكا بالتوسع. وفي الحقيقة، فإن فيلم المخرج جورج ستيفنز صنع بوعي ذاتي ليكون بمثابة أسطورة رمزية.

ومنذ كوبر، أصبح أدب "رعاة البقر" عنصرا محوريا في نمو الثقافة الشعبية الأمريكية، وعمادا أساسيا لأشكال الترفيه والتسلية الشعبية التي أنتجتها، ونوعا أدبيا / فنيا وفر الموقع المكاني لتفحص دوافع ومشاعر وأفكار الذات في تاريخ أمريكا. كما هيمن على نهوض السينما باعتبارها واسطة لتمثل وصنع هوية أمريكية وطنية، لكن ليس من المفاجئ أن يجمد أدب "الكاوبوي" الإدراك الذاتي التاريخي لأمريكا في قالب مفارقة تاريخية تشوه الواقع الزماني/المكاني. فقد وسع وضخم وشفّر فهما جمعيا لمعنى روح ومزاج الأمة عبر تجسده في تقاليد شكله الروائي.

ليس ثمة مهرب من أدب "رعاة البقر"، وبالتالي ليس هناك من سبيل لتفادي المبادئ الأخلاقية التي تأسس عليها - وشكلت وعي الرأي العام الأمريكي. وكما عبر عن ذلك جون واين في عبارته الشهيرة حين لعب دور رينغو كيد في فيلم "مركبة السفر" (Stagecoach): "هنالك بعض الأشياء، التي لا يمكن

للإنسان أن يدير لها ظهره ببساطة". ما عناه هو حسم النزاعات بواسطة العنف، بواسطة معركة المسدسات التي يشرعن فيها البطل مهمة أمريكا عبر قتل كل من يقف في طريقه، أو طريقها. لقد وصلت أفلام رعاة البقر الملحمية (في السينما والتلفزيون) إلى أوجها في الحقبة التي أسست فيها أمريكا دولة الأمن القومي على مبدأ مناهضة شر الشيوعية ("إمبراطورية الشر" كما أصر على وصفها نجم أفلام رعاة البقر في الأدوار الثانوية]، ثم الرئيس الأربعون للولايات المتحدة، رونالد ريغان)، وبدأت تلعب دور "الشريف/العمدة" في معركة المسدسات العالمية التي استلهمت وحيها من "الكاوبوي". بكلمات أخرى، أنها الحقبة التي قامت فيها أمريكا بعولمة فلسفة/ مفهوم رعاة البقر لتجسد وجهة نظرها في الشؤون الدولية؛ حين ظلت تجد تهديدات - لا تستطيع أن تدير ظهرها لها - في كل الحروب المحلية والصراعات عند التخوم القصية النائية للعالم الثالث؛ وحين مارست في السياسة الخارجية عقيدة مؤسسة على مبدأ أن الرد العنيف هو الوسيلة الأولى والوحيدة والموثوقة لحل الصراعات.

هذه السياسة الخارجية، المعتمدة على فلسفة "الكاوبوي" كدراما ملحمية وبطولية وأسطورية، كانت أيضا تحقيقا لمفهوم أمريكا الملتبس عن "حقها / واجبها في التوسع". فكرة

"الواجب / الحق في التوسع" أعلنت لأول مرة من قبل المجادل العنيف جون ل. اوسوليفان في مجلته السياسية "ديموكراتيك ريفيو" (Democratic Review). عبر اوسوليفان عن الفكرة عام 1845 وجرى الاستشهاد بها مرارا وتكرارا، فهو يعتقد أن للأمريكيين:

> الحق بالتوسع في/ وامتلاك كل القارة التي منحتنا إياها العناية الإلهية من أجل تطوير التجربة العظيمة للحرية والحكم الذاتي الاتحادي الذي أنيط بنا. إنه مثل حق الشجرة في حيز الفضاء والأرض المناسب لتوسيع مبدئها وقدرها المحتوم بالنمو[2].

توسع أمريكا القاري هذا كان مجرد إرهاص تمهيدي للمعنى الكامل لواجب/ حق أمريكا كما اختطه القدر وعبر عنه اوسوليفان في عام 1839، إحساس مسبق بالهيمنة العالمية اللاحقة لأمريكا باعتبارها المالك الوحيد للحقيقة وللقيم الإنسانية الشمولية:

> ولادة دولتنا الوطنية شكلت بداية لتاريخ جديد، بداية تشكل وتقدم نظام سياسي لم يختبر قبلا، يفصلنا عن الماضي ويصلنا بالمستقبل فقط، وطالما يتعلق الأمر بالتطور الكلي للحقوق الطبيعية للإنسان، في الحياة الأخلاقية،

والسياسية، والوطنية، يمكننا الافتراض بكل ثقة أن بلادنا مقدر عليها أن تكون أعظم أمة في المستقبل.. نحن أمة التقدم الإنساني، ومن يقدر على وضع حدود لمسيرتنا إلى الأمام؟ العناية الإلهية إلى جانبنا، ولا يمكن لقوة دنيوية أن تعرقل هذه المسيرة.. لقد اختيرت أمريكا لحمل هذه الرسالة المباركة إلى أمم العالم، المنغلقة أمام نور الحقيقة الواهب للحياة؛ ونموذجها الرفيع سوف يدك عروش الملوك المستبدين، وطغيان الزعماء الدينيين، وديكتاتورية حكم القلة، ويحمل الأنباء السعيدة عن السلام والمودة والرضا إلى كل الذين يتحملون الآن حياة لا تحسدهم عليها البهائم - إذن، من يقدر على التشكيك بحقيقة أن بلادنا مقدر عليها أن تكون أعظم أمة في المستقبل؟[3]

استوعب الحيز الأسطوري لأدب وفلسفة "رعاة البقر" بكل ارتياح العنصرين المتضمنين في أفكار اوسولفيان الشعبية عن الحق/ الواجب المحتوم بالقضاء والقدر. الأسطورة تعتمد على التجربة التاريخية للثقافة ومصادرها من الإحساس، والخوف، والطموح؛ وكما برهن ريتشارد سلوتكين، يمكن "إظهارها وهي تعمل في تلك الثقافة باعتبارها 'وصفة' للفعل التاريخي

وحكم القيمة"[4]. فأدب "رعاة البقر" متخم بثقة عظيمة بالمستقبل الذي يصنع على التخوم القصية للغرب الأمريكي، الموقع المكاني الكلاسيكي لحكم القيمة. ومع ذلك، يقدم المستقبل وكأنه يصنع في مراكز حدودية نائية، ومعزولة، ومعرضة للخطر، وغير آمنة، وتحت التهديد الداهم المستمر، تنهكها وتروعها غارات عملاء الشر المتنكرين بأقنعة عديدة، لكن يمكن تميزهم جميعا بوصفهم أعداء للحضارة الحقيقية الصحيحة. العلاقة الملتبسة بين الشعور بعدم الأمان، والحاجة للحفاظ على الذات، والواجبات الأخلاقية الضرورية لعظمة المستقبل، تحل غموضها بنفس 'وصفة' الفعل التاريخي في كافة الأشكال التعبيرية لفلسفة "رعاة البقر": البطل المتمنطق بالمسدس، الرجل الذي يفوق الجميع - بحكم الضرورة الأخلاقية - في براعة سحب مسدسه واستئصال المشكلة.

التقاليد المتبعة في أفلام "الكاوبوي" (الويسترن) لا تبقى محصورة في الحدود الداخلية لأمريكا. فقد رسخت فكرة حرية التجوال وغرس الجذور أينما كان؛ وفي أي مكان غرست فيه، تصبح تلك الأرض أمريكا. وعلى شاكلة الحق / الواجب المحتوم بالقضاء والقدر الذي وصفه اوسوليفان، فإن قيم فلسفة "الكاوبوي" هذه تتوسع لتغدو "مَدْوَنة" قوانين ومبادئ عالمية /

شمولية يمكن أن تقحم معانيها / وتستخدم لبناء كل القصص. وبالتالي فإن الصراع بين الخير والشر في كل مكان آخر يمكن نقله بسهولة إلى أدب "رعاة البقر"؛ كل قصص العالم يمكن إعادة روايتها عبر أدب "رعاة البقر". وبذلك أصبح من الشائع لهوليود ترجمة القصص "الشرقية" التي جرت أحداثها في الشرق إلى قصص "الكاوبوي" التي تجري في الغرب الضاري الأمريكي. على سبيل المثال، أنتجت هوليود عام 1935 فيلما بعنوان: "حياة حملة الرماح في البنغال"، على شكل دراما فروسية تجري أحداثها على التخوم الشمالية الغربية من الهند البريطانية، حيث يتجسد عدو الحضارة ببدوي أفغاني خسيس يدعى محمد خان. لا يسهل فقط اعتبار محمد خان "هنديا من الهنود الحمر"، بل إن الفيلم أعيد إنتاجه عام 1939 باسم "جيرونيمو" لتدور أحداثه في الغرب الأمريكي. الرابطة المناسبة بين منطقتي الحدود جسدها مشهد تعذيب ضابط من الخيالة أسره رجال القبائل المحلية، وهو موضوع شكل على الدوام أسلوبا معياريا في أدب "الكاوبوي".

لم تبتكر هوليود هذه الفكرة المتعلقة بتبادلية القيم على حدود الحضارة. فقد أعلنها الرئيس (السادس والعشرون) للولايات المتحدة، تيودور روزفلت (1901 ـ 1909)، الذي كان في بداية حياته المهنية كاتبا وأحد الذين أضفوا الصفات الأسطورية على الغرب الأمريكي. نشر روزفلت مؤلفا تاريخيا

من أربعة أجزاء بعنوان: "تكوين الغرب" (1894 ـ 1896)، إضافة إلى العديد من الكتب الأخرى المستمدة من تجربته في تأسيس مزرعة للمواشي في مقاطعة داكوتا عام 1883. كان روزفلت، كسياسي، واحدا من مهندسي الإمبراطورية الأمريكية، وسياسة التوسع، وفكرة "الحق/ الواجب المحتوم" في مناطق المحيط الهادي وباقي العالم. أعلن روزفلت حول الاحتلال الأمريكي للفليبين عام 1898، أن: كل حجة يمكن أن تقدم لصالح الفليبين تنطبق على الأباتشي. كل كلمة تقال عن اغوينالدو• يمكن أن تقال عن "الثور الجالس"••. [فضائل] السلام، والنظام، والرخاء تبعت جميعا توسعنا في أراضي الهنود. وكذلك سوف تتبعنا في الفليبين[5].

ثم أتت ملاحظة روزفلت الشهيرة، في تطابق تام مع ممارسة أدب وفلسفة وذهنية "الكاوبوي"، حول فعالية السياسة الخارجية: "لا يمكن للانتصار في السلام أن يعادل النصر المسلح في الحرب"[6].

• اميلو اغوينالدو: زعيم فليبيني قاد ثورة ضد الحكم الإسباني (1896 - 1898)، ثم انتفاضة ضد السلطة الأمريكية في الفليبين (1899 - 1901). (م).

•• "الثور الجالس" (1834؟ -1890): زعيم هندي هزم خيالة الجنرال كستر في معركة "ليتل بيغ هورن" عام 1876. (م).

ليس التاريخ الأمريكي، على عدة مستويات، سوى رواية حربية. البواعث والخطاب المنمق الطنان لحرب الولايات المتحدة على الحدود الداخلية (ضد الهنود الحمر مثلا) جرى تصديرها إلى الحدود الخارجية كوسيلة لفهم وتشكيل العالم. ويمكن بسهولة قراءة تقاليد أفلام "الكاوبوي" (الويستون) في كافة أفلام الحركة (action)، بما فيها الأفلام الحربية، وهي نقطة استحثت ديفيد ستيريت، الناقد السينمائي لمجلة "كريستيان سيانس مونتيور" (Christian Science Monitor) على التساؤل:

هل ساعدت عادة هوليود القديمة المتمثلة في استخلاص القيمة الترفيهية من العنف والخراب، على صياغة وتشكيل ردة فعل أمريكا الفورية على أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وأثرت، ربما، في الأفكار المتعلقة بالطريقة التي يجب على البلاد اتباعها للرد على أعدائها الحقيقيين والذين يعتبرون كذلك؟ الجواب عن السؤال الأول هو على الأرجح: نعم.

يتابع ستريت ليطرح فكرة "أشد إثارة للقلق": "ربما تكون تلك الآراء العامة الشعبية المطالبة بالرد، والثأر، والحرب، قد أتت من عقود من فنون التسلية الجماهيرية والترفيه الشعبي وليس من التأملات الهادئة الرزينة بالتاريخ والفضيلة والأخلاق"[7]. ومن أجل

التفكير التأملي المتروي بالتاريخ، كان يتوجب على أمريكا أولا معرفة تاريخ باقي شعوب العالم في إطار يختلف عن رواية تقرأ تبعا للتقاليد، والقواعد والتوصيفات الثقافية، وأحكام القيمة الأمريكية. وفي الحقيقة، وكما رأينا في الفصل الرابع، ظلت صناعة الترفيه الأمريكية طيلة عقود منشغلة وناشطة في إلغاء ومحو وتجاهل بقية العالم بوصفه منطقة لها تاريخ مختلف، لتعيد خلقه بلغة أمريكية مبتذلة - داخل القالب الذي صنعه روزفلت. لأوروبا إحساس مختلف بمعنى التاريخ، وفلسفة اجتماعية مختلفة نتجت عنه. والتقليد الأمريكي السافر المتبع في إعادة كتابة التاريخ هو الذي جرح مشاعر الأوروبيين إلى هذا الحد.

الملحمة البطولية الهوليودية عن الحرب العالمية الثانية "يو 571" (U571) عبارة عن نموذج يمجد تراث اغتصاب التاريخ وطمس حقائقه. الفيلم يتناول واحدا من الأحداث الحاسمة في مجرى الحرب، الاستيلاء على آلة شيفرة ألمانية أعطت في نهاية المطاف معلومات استخبارية حيوية لصالح قضية الحلفاء. لكن في النسخة السينمائية من التاريخ، تحولت قضية الحلفاء إلى مسعى أمريكي بالكامل. في التاريخ الحقيقي، تم الاستيلاء على الغواصة الألمانية وآلة الشيفرة بواسطة الغواصات البريطانية عام 1941، قبل أن تدخل أمريكا الحرب. في حين أصبحت في

التاريخ السينمائي عملية أمريكية بالكامل جرت عام 1942. لقد نقلت الحادثة التاريخية إلى الشاشة وترجمت باعتبارها مأثرة بطولية لما يدعوه ريتشارد سلوتكين بنموذج "الحرب النبيلة"[8]. في الأفلام الحربية هنالك على الدوام معنى دعائي كامن فيها، إضافة إلى كونها أدوات للجدل حول السياسة والأخلاق. وبالنسبة لأمريكا، فجرت أوروبا وخاضت حربين عالميتين تطلبت كل منهما استدعاء أمة مسالمة هانئة ومترددة لحل مشكلات العالم القديم بالقوة التجديدية لمشاركتها المسلحة. لأن القوة العسكرية الأمريكية التي مارست عملها "هناك" كانت ضرورية للحفاظ على العالم وعلى أمنه. انتصرت أمريكا لأن قوتها الاقتصادية، والانتاجية، والعسكرية كانت عاملا حاسما في تغيير مجرى الحرب. هذه النسخة التبسيطية التسطيحية للتاريخ تباعد بين وجهتي النظر الأمريكية والأوروبية، وتوجد قاعدة لبناء استجابات مختلفة لعالم ما بعد الحرب، خصوصا في حقبة الحرب الباردة.

يبدو أن أمريكا تفتقد الإحساس بالمعنى الذي خلفته الحرب العالمية الأولى في الوعي الأوروبي. المذبحة الجماعية لجيوش المجندين على الجبهتين الغربية والشرقية، غيرت بصورة جوهرية المجتمع الأوروبي، وديناميات السياسة، والدين، والفلسفة

الاجتماعية في أوروبا ووجهة نظرها حول الطبقة العسكرية والروح الحربية القتالية. في بريطانيا، عانت الكنيسة من انخفاض حاد في عدد المصلين بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت بداية لتقليد طويل الأجل. وعزي السبب إلى مشاعر التقزز والاشمئزاز الشعبي من الشعار الشوفيني الذي يثير السخرية: "الله معنا"، حيث استخدم لتجنيد وتعبئة وحث ضحايا المدافع الرشاشة على المشاركة في صراع وحشي عبثي لا معنى له. صُور الجندي العادي في التخيلات المجازية لعدد لا يحصى من الشعراء، باعتباره المسيح المصلوب الذي ضحي به على مذبح القومية وخطاياها، وقدم الاستغلال القوماني للدين من قبل كل دولة بوصفه فحشا مهرطقا يدنس المقدسات، ولن تحتل الروح الحربية مرة أخرى موقعا نافذا أو تمتلك سلطة لا تثير الخلاف في الفكر أو الوجدان الأوروبي. وهذا ما جعل العسكرية الفاشية عدوا يجب مواجهته كواجب أخلاقي في الحرب العالمية الثانية.

زودت الحربان العالميتان أوروبا أيضا بفهم شعبي مختلف تماما حول روسيا. عانت روسيا من نفس الصدمة التي سببتها المذبحة والتضحية بالمواطن العادي، مثلها في ذلك مثل الأمم الأوروبية الأخرى. وشعرت الحكومات الأوروبية بخوف شديد من أن تكون ردة فعل شعوبها مشابهة لردة فعل الشعب الروسي.

فقد تعاطفت الطبقات العاملة في أوروبا مع الثورة الروسية دون أن تكون بالضرورة مؤيدة للشيوعية أو البلشفية. إذ كانت الاشتراكية في أوروبا تعني أكثر بكثير من مجرد البلشفية. إضافة إلى أن الحرب العالمية الثانية زودت الأوروبيين بمنظور مختلف عن روسيا. وكان لدى الشعوب الأوروبية، التي عانت بشكل مباشر من التأثير التدميري للحرب الحديثة الشاملة على السكان المدنيين والبنية التحتية، مصادر وفيرة تنهل منها تعاطفها مع تجربة ومعاناة روسيا في الحرب الوطنية الكبرى. ولا ريب أن أوروبا تضمر فهما واضحا لحقيقة أن "انتصارها" في الحرب ضد هتلر يدين بفضل هائل إلى رغبة واستعداد الشعب الروسي للقتال والموت في سبيل القضية المشتركة مع بقية دول أوروبا، وذلك بالإضافة إلى العضلات العسكرية القوية للولايات المتحدة. ومن الأفكار الوجدانية الشائعة في أوروبا أن هذه المساهمة الروسية على الجبهة الشرقية كانت على الأرجح أكثر العوامل حسما في تحديد مجرى الحرب.

في عالم ما بعد الحرب، أصبحت الحرب الباردة الجديدة رمزا عالميا لأمريكا، حيث أسقطت على العالم أسطورة الغرب الأمريكي الضاري الخاصة بها لفهمه. وفي هذه الحرب أيضا، تبدى فرق واضح بين المواقف الشعبية في أمريكا وأوروبا. فقد

كان لأوروبا، انطلاقا من تجربة تاريخية مختلفة تماما، سبب وجيه يدعوها للشك في حكاية شبح قوة روسيا الشيوعية، وعدم التأثر بها. إذ امتلكت فهما غريزيا أكثر تعقيدا لمعنى حقيقة أن ثلث الطاقة الإنتاجية الروسية قد دمرت في الحرب ضد هتلر. وفي حين أن الخطاب السياسي الأمريكي الطنان بنى عمارة الخطر الروسي بالتعابير الشيطانية المألوفة، إلا أن الرأي العام الشعبي الأوروبي كان أقل سذاجة وسرعة في تصديق الأمرين معا: أبلسة روسيا، والزعم بأنها تمتلك القدرة الاقتصادية على اللحاق بأمريكا - ناهيك عن التفوق عليها. وأثبتت الأيام صوابية هذا الرأي. فقد جرى الترحيب بنهاية الحرب الباردة باعتبارها انتصارا للرد المسلح، الذروة التي علّمت حقبة "نهاية التاريخ" عبر الانتصار العالمي للروح المميزة لأمريكا. أما في أوروبا، فقد كان الابتهاج بالنصر راجع إلى الأمل الحماسي بأن عداوة الحرب الباردة التي ضيعت نصف قرن من الزمان سدى، وأفرزت منطق "التدمير المؤكد المتبادل" (MAD)، وبددت الموارد الثمينة كنتيجة لزومية للمواجهة، قد وصلت إلى نهايتها أخيرا.

حين قررت أمريكا أن تكون الشيوعية الروسية هي الحدود النائية الجديدة - خط التقسيم الحضاري الذي يمكن العثور عليه في كل مكان من العالم والذي يجب مواجهته أينما

كان - توجب عليها حث وإقناع الرأي العام الأمريكي بذلك. وكما أشار السناتور ارثر فاندبرغ على الرئيس ترومان، إن أردت حقا تجميع كل الأسلحة وجباية الضرائب لدفعها من أجل الحدود النائية الجديدة، فمن الأفضل لك أن "تجعل الشعب الأمريكي يرتعد خوفا"[9]. وفعل ترومان ذلك عبر سلسلة من الخطب التي تركزت على "الخطر الأحمر" الداهم، واستشهدت بالتهديد الذي تتعرض له فرنسا وإيطاليا. كان - ومازال - في كل من فرنسا وإيطاليا حزب شيوعي كبير، لكنه يمتلك تاريخا خاصا به ولا يدين بفضل كبير إلى روسيا. وليس من المفاجئ أن يجد الفرنسيون والطليان ومعظم الأوروبيين كلام ترومان عن شبح "الخطر الأحمر" الزاحف داخل أوروبا، مبالغا في التبسيط والسذاجة. وفي الحقيقة فإن خصوصيات التاريخ المختلف لوَّنت الفهم الأوروبي لكل حروب "رعاة البقر" التي بررت فيها أمريكا استخدامها للقوة المسلحة - في العلن والسر - كجزء من مسعاها المتمسك بأهداب الفضيلة لاحتواء ومجابهة الخطر الأحمر. هناك نقطتان تفترق عندهما أمريكا وأوروبا فيما يتعلق برواية "الكاوبوي" المطبقة على العدو الأحمر.

1 - تمتلك أمريكا فهما واضحا ومباشرا عن أوروبا باعتبارها العالم القديم الذي تسكنه شعوب تخلفت عن

الركب. في المخيال الشعبي والتصورات الذهنية الشائعة، تبدو أوروبا وقد نخرها الفساد والتفسخ بحيث يتلهف مواطنوها للهرب. وباستعارة لغة اوسوليفان، إذا كانت مشكلة التاريخ الأوروبي هي استبداد الملوك، وطغيان الزعماء الدينيين، وديكتاتورية حكم القلة، وهي حالات مرت بها فعلا، فإن أمريكا على ما يبدو لا تعطي أهمية كبيرة لحقيقة أن أوروبا قد كافحت طويلا ضد أشكال الحكم الشيطانية هذه حتى توصلت إلى صيغة مقبولة لطاعة السلطة مستخدمة وسائلها الخاصة وتبعا لشروطها الذاتية. السياسة والمجتمع في أوروبا يعانيان من كثير من المثالب والعيوب، لكنهما ليسا أسوأ حالا منهما في أمريكا، وأوروبا تحتفظ بحقها في الاعتقاد بأنها تتصف بالضمير الأخلاقي، والإخلاص للحرية، والتمسك بحقوق الإنسان، وفضيلة احترام المواطنية، مثلها مثل أمريكا. وحين يتطلب تجسيد دور الشرير الشيطاني في أفلام هوليود المعاصرة ممثلا أوروبيا بصورة إجبارية، يصبح لدى أوروبا سبب يدعوها للتساؤل بشكل جدي عما إذا كانت أمريكا تعترف فعلا بوجود أي تكافؤ بين الثقافتين. للأمم الأوروبية تاريخها الخاص من العنصرية، والاستعمار، وانحسار المد الاستعماري؛ كما

جوبهت بالمقاومة وطردت بالكفاح المسلح من مستعمراتها، ثم توجب عليها الجلوس والتفاوض مع الكثير ممن اعتبرتهم في السابق إرهابيين وصورتهم كأعداء وأبالسة، قبل اعتبارهم شركاء - مثل جومو كينياتا، زعيم ثوار الماو الماو، الذي أصبح أول رئيس لكينيا المستقلة، ونيلسون مانديلا، القديس العلماني الآن، الذي أطلقت عليه مارغريت تاتشر لقب "إرهابي". ما حدث في التاريخ شكل درسا مفيدا صاغ وجهة نظر سياسية أوروبية مميزة حول شؤون العالم.

2 - لم تجد أوروبا في العنف، انطلاقا من تجربة حربين عالميتين اثنتين خاضتهما، سبيلا للخلاص والإصلاح، وكانت فكرة حروب العالم الثالث ذاتها أمرا بغيضا ومنفرا بالنسبة للرأي العام الشعبي الأوروبي - ولهذا السبب كانت لـ"الحملة من أجل نزع الأسلحة النووية" (CND)، وحركة السلام عموما مثل تلك الجذور العميقة في أوروبا. أما أدب "رعاة البقر" فلم يتمكن من خلق نفس الحيز السيكولوجي في أوروبا. في حين احتل في أمريكا مساحة أسطورية مثالية لجعل المواطنين "يرتعدون خوفا". لقد تزامن مولد الحرب الباردة مع ذروة انتشار أدب

وفلسفة رعاة البقر في أمريكا من خلال السينما، والراديو، والاختراع الحديث آنذاك، التلفزيون. سنرجع، الآن إلى الوادي، المأهول بالمستوطنين البسطاء الضعفاء في فيلم "شين"، وقد تلهفوا لتأمين مستقبلهم عبر الفردانية والعمل الشاق. تجربة سن الرشد بالنسبة للشباب الأمريكيين في أوائل الخمسينيات، حين عرض الفيلم، شملت تدريبات منتظمة (على الدفاع المدني) يختبئون فيها تحت مقاعد الدراسة لإنقاذ أنفسهم من الغبار النووي الذي تخلفه الرؤوس الحربية الروسية: إنه جنون الارتياب والإحساس بعدم الأمان باعتبارهما الأساس للحياة الطبيعية، تماما كحال المستوطنين الذين كانوا يتوقعون العمليات الإرهابية كل يوم من مربي الماشية. في "شين"، يجسد الصبي، جو الصغير، الجانب الآخر من أسطورة بلوغ سن الرشد، فهو أمريكا الأصيلة في مراحل نشأتها الأولى. الحقيقة المقلقة هي تقديم هذا الصبي بصورة من يتلهف للعنف، ويتأثر به باستمرار، ويفتن بالأسلحة، ويتوق لتعلم كيفية استعمال المسدس. جو الصغير هو الذي يركض خلف شين ليشهد المعركة الأخيرة، ويزود الفيلم بخاتمة مؤثرة لا تغيب عن البال، حيث نادى بحزن على شين يدعوه للعودة وهو يبتعد على صهوة جواده نحو

المدى الفسيح. ما الذي قاله وردد الصدى صوته؟ "بابا لديه عمل لك، وأمي تريدك، أعرف ذلك. شين. شين! ارجع! وداعا يا شين". البطل التائه قدم الخلاص، والأمن، وحافظ على بقاء المجتمع المحلي الضعيف الغرير بواسطة العنف. تاق إليه الناس ورغبوا به. هذا ليس وداعا نهائيا: سيحتاجون مرة أخرى لمثل هؤلاء الأبطال وهذه الأساليب التكتيكية. وفي الحقيقة، عاود شين الظهور في السينما مجسدا في الممثل كلينت ايستوود ("رجل بلا اسم")، ولا سيما في فيلم "الفارس الشاحب" (The Pale Rider) (1985).

إذا كان اللجوء إلى العنف جزءا أصيلا وضروريا من الخطاب الأمريكي الطنان، فليس من المفاجئ أن نجد العنف وقد اتخذ شكلا ماديا ليكوّن وسيلة اتصال. يلاحظ لويس لافام محرر " مجلة هاربر "، أنه في صيف عام 1965، عرَّف وزير الدفاع الأمريكي - آنئذ - روبرت مكنمارا الغارات الجوية التي قتلت في نهاية المطاف حوالي مليوني شخص إلى الشمال من سايغون بأنها وسيلة اتصال:

القنابل أصبحت استعارات رمزية استهدفت إقناع الفيتناميين الشماليين بالاعتراف بحتمية انتصار أمريكا.

وهكذا قصفت الطائرات الأمريكية المدنيين إضافة إلى الأهداف العسكرية لأسباب تتعلق بالخطاب البلاغي الدعائي أكثر من تعلقها بالدواعي التكتيكية ("الإقناع بالقنابل"). لم يكن مكنمارا فريدا في افتراضاته، بل هو نتاج وخادم لمجتمع يحب التعبير عن نفسه بلغة العنف، وقد سقط في شرك حلم القوة الذي استعاض بقواعد بيانات الرواية الوهمية عن نصوص الحقيقة البدهية الشائعة. ما كان حقيقيا هو صورة الحرب التي ظهرت على المخططات الانسيابية (flowcharts) وشاشات الكمبيوتر. أما ما لم يكن حقيقيا فهو الألم والمعاناة والتشويه والموت[10].

هذه النزعة الأمريكية لتمجيد وامتداح العنف دون التفكر بتكلفته البشرية، وعدم المشاركة الوجدانية مع المعاناة الإنسانية من عواقبه وتبعاته، هي التي تملأ قلوب سكان العالم بالخوف من أمريكا والكراهية لها في آن. ولربما لا يعرف باقي العالم أصول ونشأة هذا العنف، لكن الأوروبيين يعرفون أصوله في التاريخ الأمريكي وموقعه في الوعي الأمريكي. في أفلام وحكايا "رعاة البقر" قد يصاب البطل، لكنه يتعافى ليجد الحل، ويقتل العدو في النهاية وتكون كل التبعات والنتائج

إيجابية خالصة. لقد جعلت حرب فيتنام العالم بأسره يألف العبارة المرعبة الكريهة "الدمار غير المتعمد للأهداف المدنية". ويبدو أن هؤلاء المدنيين الذين ذبحوا بدون قصد لا يعتبرون بشرا حقيقيين. لا يعني ذلك أن الأبرياء لم يتعرضوا للقتل أبدا في الحروب الأوروبية، فلطالما حدث لهم ذلك؛ بل تكمن المعضلة في عدم استعداد أمريكا للتفكير في/أو حتى استخدام لغة صادقة ونزيهة في وصف الضحايا الذين دمرت حياتهم، الأمر الذي يجعل الناس يعتقدون بأن حرية أمريكا في الاستمتاع بالحياة، والحرية، والبحث عن السعادة هي الممارسة الوحيدة التي تهم من بين ممارسات هذه الحقوق والامتيازات.

استخدام العنف في الخارج في سبيل جعل العالم مكانا آمنا ومذعنا للأسلوب الأمريكي شكل تاريخ النصف الأخير من القرن العشرين، مثلما رأينا في الفصل الثالث. أما حقيقة أن ذلك قد استحث احتجاجات واعتراضات لا نهاية لها وأدى إلى ترسيخ الاعتقاد بين شعوب العالم الثالث بأن أمريكا تعتبرهم بشرا من الدرجة الثانية، فهي إحدى "الأجندات" التي اختارت أمريكا تجاهلها بكل تصميم وعناد. ونادرا ما التقط "رادار" التفكير السياسي الأمريكي ما يثيره ذلك من نفس القدر من الشك والغضب والخوف في أوروبا. فحين قرر رونالد ريغان قصف ليبيا

عام 1986 ، انطلاقا من القواعد الأمريكية في أوروبا باعتبارها "حاملة طائرات برية" ، لم يشعر الرأي العام الأوروبي وحده بالسخط الشديد. السياسيون أيضا عبروا صراحة عن خشيتهم من استغلال حلف الناتو والتلاعب به إلى حد تصديع أركانه. وتبدو معارضة أمريكا لاقتراح إنشاء قوة أوروبية للتدخل السريع معاكسة للشكوى الأمريكية المستمرة من أنها تتنكب عبء الدفاع عن الحرية وحدها وعلى نفقتها الخاصة؛ وامتنعت عن الدخول في حوار سياسي جدي يتناول مسألة تباعد الشقة بين وجهتي النظر الأمريكية والأوروبية حول العالم. كل ذلك عزز الاعتقاد القوي بأن أمريكا أمة فقدت القدرة - إن امتلكتها أصلا - على الاستجابة إلى أي تحد ، أو أزمة ، أو نزاع ، أو خلاف في الرأي عبر التفاوض ، أو التسوية ، أو الحوار الجاد.

الأسباب التي أدت إلى انعدام القدرة هذه موجودة داخل أمريكا ذاتها ، حسبما يثبت لويس لافام. ففي مقالة له حول عملية التفجير الإرهابية لمبنى الفرد موراه في مدينة اوكلاهوما عام 1995 ، يسأل لافام: "كيف نبني فكرة أمريكا عن الحرية إذا توجب علينا التواصل مع بعضنا بعضا بالقنابل؟"[11]. المعنى الضمني الأشد ترويعا وبشاعة في تفجيرات اوكلاهوما هو أنها قد صممت، كما لاحظ العديد من المعلقين، لتفهم داخل إطار

تراث العنف المتجدد. ففي رسالة له إلى إحدى الصحف عام 1992، سأل تيموثي مكفي (الإرهابي الذي قام بعملية التفجير): "هل الحرب الأهلية وشيكة؟ هل يتوجب علينا سفك الدماء لإصلاح النظام الراهن؟" أجاب لافام عن سؤاله (هو) بالقول إن مكفي حول "أكثر من طنين من الوقود ونيترات النشادر إلى بيان رسمي يعلن على الصحفيين"[12]. وفي الحقيقة، يعتبر استخدام العنف في أمريكا للتشديد على رأي معين تراثا تقليديا راسخ الجذور. وكما لاحظ أحد المعلقين في صحيفة "نيويوركر" (The New Yorker):

> تفجيرات اوكلاهوما.. تتناسب تماما مع ذلك التقليد الدموي ومخلصة إلى أقصى حد لمبادئه وقواعده: توقف عن التفكير بالآخر كشخص وابدأ التفكير به كمناسبة. كلوح خال من الكتابة ستنقش عليه فكرة اليوم[13].

ليست أمريكا أمة يحدث فيها العنف العشوائي كل يوم فقط؛ ويصبح فيها احتمال التعرض للقتل من قبل لص من أجل حفنة من الدولارات أو ساعة معصم خوفا روتينيا يعاني منه أي مواطن؛ ويشيع فيها إطلاق الرصاص من السيارات العابرة وبين السائقين الغاضبين المسلحين. إنها بلاد يأخذ فيها المراهقون

المتمردون مسدساتهم إلى المدارس ويطلقونها على الناس، ومكان أصبح من الشائع فيه قيام المكتئبين والمتمردين والمرضى النفسيين بأعمال القتل الجماعية. لقد أصبح خطاب العنف ولغته الطنانة جزءا لا يتجزأ من المشهد السياسي الأمريكي. ومع تنامي الاستقطاب داخل الولايات المتحدة لتغدو أمة ثنائية الثقافة - ليبرالية ومحافظة - وغير قادرة على التواصل عبر الحوار السياسي نظرا لأن الاختلافات تقع داخل الطيف الضيق للجمهوريين والديمقراطيين، تحولت إلى بلاد رسخ فيها مبدأ "الإقناع بالقنابل" جذوره. وهكذا يمكن لأولئك المدافعين بحماس عن حق الجنين الذي لم يولد بعد في الحياة بتفجير العيادات التي تجري عمليات الإجهاض واغتيال الأطباء فيها. بالنسبة للويس لافام، يعتبر ذلك إشارة دلالية معبرة عن الأبعاد الحقيقية لمشكلة أمريكا المعاصرة:

الجماعة التي يربط أفرادها المعنى المشترك انقسمت إلى عوالم متباعدة صنعناها بأنفسنا، وهي تتراجع مبتعدة عن بعضها بعضا بسرعة الضوء. لم نعد بحاجة لرؤية/أو التحدث مع "الآخر" الذي لا نتفق معه، ويمكننا بناء ذواتنا مثل حكوماتنا داخل منفى من الفضيلة الأبدية. فلكل خير عندنا "نحن"، يمكن أن نسمي شرا لديهم

"هم"..؛ ولكل صفة ذميمة نلصقها بـ"هم"، بالبعيدين عنا، هنالك سمة حسنة نعزوها إلينا، "نحن"، وإلى جيراننا القريبين منا [14].

إذا أصبحت أمريكا بلدا لا يمكنه التحاور أو التفاوض مع ذاته، ولا التعامل مع المعاني المختلفة لدى مواطنيه الأمريكيين، فأي أمل لدينا بأن تعير أمريكا أذنا صاغية أو تتعامل بعقل منفتح مع بقية العالم؟ هذا بالضبط ما يقلق معظم الناس في أوروبا حول أمريكا. وهو ما يدفع أيضا العديد من الأوروبيين، خصوصا الذين يميلون إلى اليسار منهم، لإدانة أمريكا بمثل هذه التعابير القاسية والمتشددة.

قبل الحادي عشر من سبتمبر، كان هنالك العديد من المعلقين الذين قرؤوا علامات الانحطاط والتفسخ والفساد والانحلال في ثقافة أمريكا السياسية. فعدم القدرة على إيجاد أي حل سياسي لقضية العنف كان بمثابة المثال الأهم على أزمة أشمل وأعم. ومن غير المفهوم بالنسبة للأوروبيين، مثلا، كيف يمكن لقرار يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر فيما يتعلق بالحق بحمل السلاح أن يصبح مشكلة محيرة لا يمكن العثور على حل سياسي لها في بداية القرن الحادي والعشرين، في أمة يحدق بها خطر سفك دماء مواطنيها برصاص المسدسات

والبنادق. أمريكا تهتز وترتجف، لكنها لا تتحرك لإصدار تشريع قانوني يعالج مشكلة الأسلحة المنتشرة لدى مواطنيها، وذلك نتيجة الضغوط المتنافسة التي تمارسها أفكارها المتناقضة المتعارضة. في أوروبا لم تكن فكرة المواطن المسلح مقبولة أبدا، لا من الملوك المستبدين، ولا من الزعماء الدينيين، ولا من الحكام الديكتاتوريين، تماما مثلما هي مرفوضة من الحكومات الوفية لمبادئ الديمقراطية، والحصول على السلاح يخضع لرقابة صارمة، وهنالك خوف عميق من انتقال عدوى العنف الإجرامي المسلح الذي تصدره الثقافة الشعبية الأمريكية. وحين أطلق مسلح الرصاص داخل مدرسة ابتدائية في دنبلين في بريطانيا عام 1996، سارعت السلطات المعنية إلى استصدار قانون تشريعي طبق بخلال مدة وجيزة من أجل زيادة القيود المفروضة على شراء واقتناء الأسلحة، وحظي بدعم ساحق من السكان. في أوروبا، ليس للمسدس سحر غامض؛ بل يعتبر عموما سلاحا هجوميا خطرا ويعامل على هذا الأساس. لقد عرفت الدول الأوروبية وعايشت الإرهاب السياسي في الداخل لبعض الوقت، كما رأينا في الفصل الأول، حيث عارض الإرهابيون الحكومات بكل عناد، ومع ذلك بقي الإيمان بأن الحل السياسي للمظالم وليس القضاء على أصحابها بالعنف هو السبيل الأفضل والنتيجة الضرورية في نهاية المطاف، يشكل جزءا

من الاعتقاد الأوروبي الراسخ، حتى بمساعدة أمريكا كطرف ثالث وسيط. على الصعيدين السياسي والثقافي، تقف أوروبا متسائلة بتعجب عن الدوافع اللاشعورية التي تحرك أمريكا.

منذ الحادي عشر من سبتمبر، غرق الوضع الاجتماعي والثقافي داخل أمريكا، والقضايا الصعبة والمسائل العويصة التي يثيرها، في تيار دافق من المشاعر الوطنية الجياشة والقيود الصارمة التي وضعها على الحوار العام والسياسي، وذلك بدلا من إيجاد الحلول الناجعة لهذه القضايا والمسائل. لقد شاركت الأمم الأوروبية أمريكا، وهي تشعر بعاطفة قوية وحزن عميق، صدمة الحادي عشر من سبتمبر. لكن الطريقة التي استجابت فيها أمريكا للهجمات - وسوف تستمر في تبنيها - شكلت مصدرا للخوف الحقيقي بين الأوروبيين. فالألم المبرح الذي أحس به الأمريكيون، ومطالبتهم بالرد المسلح كانا متناغمين مع منطق الأسطورة الأمريكية. في مقالة كتبها ريتشارد سلوتكين إلى مجلة "تأريخ التعليم العالي" (The Chronicle of H.E.)، لاحظ كيف استخدمت أمريكا الأساطير التراثية التقليدية لرعاة البقر في "الغرب الضاري" من أجل حشد وتعبئة المؤيدين لردها على أحداث الحادي عشر من سبتمبر:

أرى حتى الآن أسطورتين اثنتين اتخذتا مواقعهما.. الأولى أسطورة "الحرب المتوحشة" المؤسسة على أقدم الأساطير الأمريكية، ألا وهي أسطورة الحدود النائية. وهي تمثل التاريخ الأمريكي باعتباره حربا ضد الهنود الحمر، حيث عارض فيها الحضارة المسيحية البيضاء عدو عرقي "متوحش": عدو يشكل عداؤه للحضارة جزءا من طبيعته أو شخصيته الجوهرية، عدو نقيض لا يعارض مصالحنا فقط بل "الحضارة ذاتها"..

الأسطورة الأخرى التي استحضرناها هي أسطورة "الحرب النبيلة"، التي استدعتها استغاثة بيرل هاربر.

الخطر في استخدامنا الحاضر للأسطورة يتمثل في أن الأساطير التي اخترناها قد تتناقض مع الواقع إلى حد يصبح فيه من المستحيل تحقيق حاجاتها ومتطلباتها.. النصر الشامل الكامل قد لا يكون ممكنا. واستحضار أسطورة "الحرب النبيلة" يعني إثارة الطموحات والتوقعات التي لا يمكن تلبيتها، والفشل سوف يضعف الثقة بالأسطورة ذاتها، وبالإدارة التي تستحضرها (كما حدث في حرب فيتنام).

وإذا لم تتبع الأحداث المسار الموصوف في أسطورة "الحرب النبيلة"، فقد نلجأ إلى سيناريو "الحرب المتوحشة". وتلك أسطورة خطرة. فهي تعبر عن / وتقوي وتمكن إحساسا عميقا بالغضب يلازمنا حين نعاني، ونحن عاجزين لا حول لنا ولا قوة، من صدمة مروعة، علاوة على أنها تعقلن استخدام القوة المفرطة، الوحشية، وربما الطائشة المتهورة، ضد تلك الدول والشعوب التي نربطها بأعدائنا[15].

الأساطير الأمريكية، الروح السائدة في ثقافة "الكاوبوي" والغرب الضاري، تزود السياسة الخارجية للولايات المتحدة بترخيص واسع النطاق لاستخدام العنف الاستثنائي وخطاب الإقناع بالقنابل. لكنها تشرعن أيضا / وتذكر أمريكا بإحساسها العميق بالعزلة، والتفرد، وبكونها شكلا متميزا عن بقية العالم. وإذا لم تتمكن حتى أوروبا (القريبة ثقافيا إلى هذه الدرجة من أمريكا، وشريكتها في الحضارة الغربية، والمصدر التراثي والسلفي للأفكار التي تعرّف أمريكا) من الحوار مع أمريكا أو تحذيرها أو نصحها فيما يتعلق بتصميمها على الرد على الإرهاب عبر اللجوء إلى "أجندتها" الأسطورية، فليس من المفاجئ إذن أن يتجاوز الخوف المعقول من قدرات ومشاعر وعواطف الدولة العظمى المفرطة القوة حدود الخشية

ويبدأ بالتطور ليأخذ شكل كراهية. والاقتراح الذي يقول إن هنالك شيئا كريها ومكروها في كل طبيعة من طبائع أمريكا، وأن أساطيرها تشكل خطرا داهما يتهدد حياة العالم، سوف يبدو عاديا وسويا ومناسبا للمقام تماما.